الوباء "العثماني" في الجزيرة العربية

كفَّن التاريخ بـ "الحُزن"... ومنع العزاء

للجرائم التي اقترفها العثمانيون ضد السعوديين بعد إسقاط الدرعية صورة مأساوية، لا يمكن أن يتخيلها المنطق فيمن يدعي أنه مسلمٌ، ويمارس ضد الأبرياء والعامة من غير المحاربين التشفي والقتل والتعذيب والتشريد. ومع تعدد جرائم العثمانيين؛ فإن أولها كانت مع حملاتهم ضد الدولة السعودية الأولى.

إبراهيم باشا

تلذذ إبراهيم باشـــا وجيشـــه بتعذيب الأبرياء؛ وركز على المؤثرين منهم من الأعيان والعلماء، فكتب التاريخ تغص بالقصص والأحداث التي تواترت عن حجم الجريمة التي ارتكبت سنة (1818)، من قائدٍ عسكري عُرف بإدمانه على المُخدر، وكثرة ما كان يُصاب به من ذُهان واقتراف للجرائم تحت تأثير المُســكرات والمُخدرات، وهــذا مما أوردته الوثائــق العثمانية التي تؤكد بأن هنالك شــخص يُرافق إبراهيم باشــا في حملاته يُطلق عليه "أغا المعجون" الذي يُعد مُضغة الأفيون المُخدر له.

ومن قصص تلذذ القائد العثماني حين قبض جيشــه على الشيخ سليمان بن عبدالله حفيد الشــيخ محمد بن عبدالوهاب بعد ســقوط الدرعية، ولكونه عالمًا ومتصلاً بعائلــة علم؛ فإن عملية تصفيتــه أخذت طابعًا ينم عن أن الأتراك أرادوا أن يرســموا في الأذهان وحشــيتهم وعدم احترامهم للعلماء إن خالفوا مصالحهم، لذا -إيغالاً في قهر الشيخ سليمان- عُزفت الآلات الموسيقية المرافقة للغُزاة أمامه، وهم يعون تمامًا أن ذلك يُضايقه، وفي الوقت الذي أرغم على سماع ما كان يكره؛ أُشير إلى حملة البنادق من الجند أن يقوموا بإطلاق النار عليه بوقتٍ واحد، وما أن تم التنفيذ حتى تطايرت أشلاء الشيخ بين الذين كانوا يتابعون عملية الإعدام.

أما قاضي بلدة الدلم الشيخ علي العريني؛ فكانــت عملية إعدامــه أكثر وحشــيةً وبُعدًا عن الإنسانية، إذ أُخذوا يَجُرُّونه إلى ساحة الإعدام، وقد جُهِــزت لذلــك مدفعيةٌ فــي وســطها، ورفعوه وأدخلوا رأســه في فم المدفــع، ليكون ذخيرة له، وأُشــعِل الفتيل بينما الناس يرون أشلاءه (رحمه اللــه) تتاطير قطعًا في الســماء. ومن لم يُقتل بهذه الطريقة من العلماء قاموا بتعذيبه وضربه حتــى المــوت، وممن عُذِّبُــوا ضربًا ولــم يموتوا الشــيخ أحمد بن رشــيد الحنبلي، إذ عذبوه بأشد أنواع وســائل التعذيب، حينما أنهكــوه ضربًا ثم خلعوا جميع أسنانه.

> **شوهوا وجه السماء بأشلاء القتلى متطايرة.**

ولــم يقتصر الأمــر في التصفيــة والإرهاب على الدرعيــة فقط، بل كان مــن مهام الجيش العثماني؛ قتل جميع من يجدونــه من الزعماء المحليين الموالين للدولة الســعودية، فكانت تُنفذ عمليات التصفية بطريقة ممنهجة وبتتبع دقيق، اســتُخدمت فيها أقسى أنواع التشفي، حيث رُميت جثث بعضهم في الشوارع بعد أن قُطعت الرؤوس.

إبراهيم باشــا فــي حملته بعد إســقاطه الدرعيــة قُبَيل رحيلــه؛ أراد أن يُمــارس كل أنواع الخراب والتخريب، فبعدما فــرَّط في أرواح الأبرياء وأرهبهم؛ عَمَــد إلى تخريب المبانــي والمزروعات والبســاتين والنخيــل، ليُحدث أزمــة حقيقية في بلدان الدولة السعودية الأولى كافة، بقصد ألا تفيق من ضربته، وأن يعي الســكان حجم العقاب الذي ســيحل بهم إذا ما كرروا المحاولــة مرةً أخرى في الوحدة والتوحد السياسي السعودي، وضرب الأمن الغذائي ودمر البُنى التحتية.

> **قهروا البراءة التي اعتادها السعوديون قبل وصول الغُزاة.**

ولم يقتصر عند هذا الحد، فقد كان يُفكــر بطريقة خراب عنقودية تُرخي بظلالها على تفاصيل حياة الناس، فإضافةً إلى استهداف الأرواح وأمنهم الغذائي؛ سعى إلى محاولة تجهيل الأجيال اللاحقة بسلب وسرقة التراث الثقافي والمخطوطات المحلية، فقد سرق معه 591 مصحفًا كان قد وجدها في المســاجد ولدى الناس، و571 كتابًا مخطوطًا ومُجلدًا أخذها من بيوت العلماء قهرًا وتشفيًا، وقد كانوا

يتلذذون بحسرة العلماء على ما أخذ من مقتنيات مكتباتهم. ولمزيدٍ من التجهيل أخذوا معهم من العلماء من لم يقتلوه حتى يغرق الناس أكثر من كل اتجاه.

كل ما قام به إبراهيم باشا من جرائم إنسانية في خلال حملته؛ أورث الخراب والدمار وغلاء الأسعار، وانتشر الفساد من أعمال جند حملته الذين كانوا ينقلون معهم الخمور، ويمارسون طقوسًا لم يعتد على رؤيتها الأهالي في الدولة السعودية الأولى، مما يتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي، وفي الوقت نفسه مع الأخلاق والقيم والمبادئ السليمة، كما انتشرت الأمراض الخبيثة والمعدية بين الناس لكثرة ما أوجد من دمار في ظل وجود عساكر من جهات عدة يحملون معهم أمراض المبادئ وجيناتها.

حسين بك وآبوش أغا:

بعد أن سقطت الدرعية وغادرها إبراهيم باشا؛ كانت تعتقد الدولة العثمانية يقينًا بأنه لن تقوم في حدود الدولة السعودية الأولى قائمةٌ بعد ذلك، خاصةً بعد ما أقيم بها من مذابح ومطاردات وخراب وسلب ونهب، وما تُرك في البلدات النجدية المختلفة من حاميات عسكرية عثمانية بقصد محاولة السيطرة على الأهالي ومتابعة حالة التدهور بين السكان، وحتى لا تُفكر القوى السعودية باستعادة قواها من جديد، لا سيما بعد إعدام الإمام عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز آخر أئمة الدولة السعودية الأولى، الذي أُرسل إلى إسطنبول، ونفذ الإعدام به جُرمًا وتشفيًا وكراهية لكل ما هو عربي وسعودي تحديدًا، باعتبار أن السعوديين هم الذي وقفوا بكل قوة وقاوموا الظلم وحققوا الانتصارات في كثيرٍ من المعارك مع العثمانيين بما يمتلكون من أسلحة بدائية مقابل الجيوش المدججة بالأسلحة والمدافع والتخطيط والدعم المتواصل.

كانت الحاميات العثمانية في البلدان النجدية تُمارس الدور الذي كُلِّفت به من قبل قيادتها، ولم يتوقع العثمانيون أن السعوديين سيكونون سريعي الاستفاقة من ضرباتهم الأولى، لذلك ما أن سقطت الدرعية سنة (1818)؛ حتى عادت المقاومة بقيادة الإمام تركي بن عبدالله، الذي لم يتمكن إبراهيم باشا من القبض عليه خلال عملياته العسكرية بعد السقوط.

لذلك كانت الحاميات تُعاني من قلق دائم من عملية المقاومة المحلية، وتخسر بشكلٍ دائم بعض عناصرها نتيجة التصفية والمقاومة، فمقاومة الإمام تركي استمرت بعد (1818) إلى أن استعصى أمره على العثمانيين سنة (1821)، حيث اضطروا إلى إرسال حملة بقيادة حسين بك وآبوش أغا، فبعد أن تمكن الإمام تركي من السيطرة على الرياض؛ وصلت الحملة وحاصرته فيها مع أتباعه، ولأن الحصار أرهق قادة الحملة؛ عرضوا على الإمام الصلح شريطة استسلامه، غير أن هؤلاء القادة لا ذمة لهم ولا وعد، لذلك قرر تركي بأن يُغادر الرياض ليستجمع قواه للمقاومة، في الوقت الذي لم يستطع كل أتباعه الخروج مع خلال الحصار، فبقي منهم (70 بطلاً) سلموا أنفسهم إلى حسين بك وآبوش أغا، على وعد أنهم حصلوا على الأمان منهم إذ استسلموا، غير أنهم ما أن خرجوا من مكانهم حتى نُفذ فيهم الإعدام مباشرةً وقتلوا صبرًا.

دخل قادة الحملة إلى الرياض، واقترفوا الجرائم الشنيعة ضد الأهالي، بجريرة أنهم عملوا على إيواء الإمام تركي وأتباعه، لذلك كان عقابهم أن أخذت جميع أموالهم منهم، بينما حُبس الكثيرون، خاصةً من ليس لديهم أموال مغرية للصوص العثمانية.

وعلى الرغم من أن الحصار كان في الرياض؛ إلا أن حسين بك أراد أن يُعيد سيناريو الظلم من جديد ضد الدرعية عندما انسحب إلى بلدة ثرمداء، حيث وجه دعوةً إلى أهالي الدرعية ليفدوا إليه بعد أن أمر قائد حامية ثرمداء خليل أغا أن يبني بيتًا كبيرًا لهم حين يفدون، وأمره أن من يدخل هذا البيت لا يخرج منه تحت أي ظرف من الظروف، وكان إغراؤه لأهالي الدرعية كي يستجيبوا له أنه سيوزعهم بين البلدان النجدية بحسب خياراتهم، معللاً ذلك بأنه مضطر لإخلائها وتدميرها حتى لا يكون فيها أحد. والقصد الذي كان يهدف إليه أن يَخرج من كان مختبئًا ويفد إليه حتى يقوم بتصفيته.

جاء إلى ثرمداء قرابة 230 رجلاً بعائلاتهم من الدرعية، وحين أيقن من أنه لن يقدم غيرهم جمعهم في البيت الذي بناه لهم وأسماه الحظيرة فأمر بقتل كل من كان فيه، لذلك يُطلق الأهالي على سنة 1236هـ (سنة الحظيرة) التي وافقت سنة (1821)، ولعمق المأساة التي حدثت أنهم لم يكتفوا بقتل الرجال، بل سرقوا أموالهم من عائلاهم، وأخذوا معهم بعض الأطفال.

بعد أن اطمأن حســين بك من أن الأرض بكت دمًا في ثرمداء؛ فرق جنوده في البلدان النجدية الأخرى، ليقتلوا ويعذبوا الأهالي وصادروا الأموال بعد فرض الضرائب الجائرة وسلبوا الأنعام والسلاح، حتى أخذوا حلي النساء من أجسادهن.

وتأكيــدًا على منهجية الجرائم العثمانية ضد الســعوديين؛ لم يكن حســين بك مختلفًا عن إبراهيم باشــا، إذ مارس ضد العلماء الفظائع والقهر، فقد عذب الشــيخ عبدالعزيز بن ســليمان بن عبدالوهاب في حريملاء، وسجنه ونهب بيته، وسرق محتويات مكتبته وما فيها من مخطوطات نادرة وكتب قيّمة، وأرســل قاضيه المرافق للحملة – اســمه الزللي – وكلفه بالإشــراف على سرقة مكتبة الشيخ عبدالعزيز، وبعد أن فرغ أشعل النيران فيما تبقى من المكتبة.

ومن أبلغ صور المآســي أن جيش حســين وآبوش كانت لديه أوامر بقتل كل من يمتنع عن دفع المال لهم، لذلك قتلوا كثيرًا من الرجال لأنهم لم يكونوا يمتلكوا شــيئًا يدفعونه لهم؛ ولكي يتوج حســين بك عمله بما يميزه، اقترف ما لم يســبقه إليه غيره، حينما نبش قبر أمير الحريق، كي يتأكد مــن أنه ميت؛ فقط لأنه كان ممن قاومهم، ولأنه انتصر على إحــدى فرقه، غير أنه قتل بعد ذلك في المواجهات الأخرى. وفي بلدتي الداخلة ورغبة النجديتان قطعوا الأشــجار والنخيل، ويذكر المؤرخون أنهــم قطعوا أكثر من ألــف نخلة فيهما، بقصد قطع المؤنة عن الأهالــي الذين كانوا يعتمدون على التمر في غذائهم، بقصد إحداث مجاعة.

ونتيجةً لهذا الإرهاب جمع حســين بك نحو 70 ألف ريال فرنسي من القصيم، وكميات كبيرة من غلال الأهالي المسروقة، وكل ذلك تم تخزينة في ثرمداء بمخازن خصصها لجمع المنهوبات التي أخذها معه حين غادر عائدًا أواخر سنة (1821)، حيث ترك حاميات عسكرية في بعض البلدان الرئيسة.

حسين أبو ظاهر

بعد رحيل حســين بك وآبوش أغا وتركهم الحاميات؛ وصل القائد العثماني حسين أبو ظاهر إلى نجد ســنة (1822) يرافقه حوالي 800 عسكري، وكان من أكثر الناس خِدعةً وتَلَوُّنا؛ لأنه ما إن وصل حتى أظهر أمام الأهالي نفســه على أنه ناســك متدين، وأوهم الناس بأنه جاء كي يحاول مسح الأثر السيء الذي أخلفته الحملات التي سبقته. بينما أنه أُرسل من أجل الإمام تركي بن عبدالله ومقاومته لحملاتهم وحامياتهم.

والســبب الآخر الذي اختبأ وراء مجيئه أن العثمانيين لحظــوا بأنهم جمعوا أموالاً طائلة في الحملات الســابقة؛ لذلك كان تركيز أبو ظاهر على جمع الأموال والضرائب من الأهالي، لذلك أرســل عســاكره إلى البلدان لجمع الأموال، وكانت تتم العملية بكثير من الوحشية والقسوة ضد الناس.

لــم يظفر أبو ظاهر بالإمام تركي، لذا ركز على تأديب الأهالي في كل اتجاه وعلى جمع أموالهم وأرزاقهم، ومما اســتفزه أن بعض عساكره وســراياه هزمت على أيدي الأهالي، ومنها قوة موسى أبو كاشــف الذي اتجه نحو قبيلة الســهول التي قاتلته بشــدة، حتى تمكنوا من قتله مع 30 من جنده، وفرت بقية السرية التي ترافقه.

كما أرسل حســين أبو ظاهر قوةً إلى موقق بالقرب من حائل، وحين امتنعوا عن الاستجابة إلــى طلباته في دفع الأموال حاصرهــم وقتل منهم قرابة 60 رجــلاً، ولضغينته تجاههم طلب من حامية المدينة إرسال قوة أخرى إلى موقق بقيادة علي أغا والكاشف إسماعيل مع 500 عسكري بعد أن تم تزويدهم بمدفع جبلي، ومارســوا أقسى أنواع الإرهاب والتشــفي. أيضًا من فرقه التي أرسلها إلى قبيلة سبيع التي كبدته الخسائر، وقتلوا من الأتراك 300 قرب الحائر، وقتلوا إبراهيم كاشف أحد قادتهم، بينما انتفضــت بقية البلدات النجدية، ومنها عنيزة التي طــردت الحامية المتواجدة فيها إلى المدينة المنورة.

نظرًا إلى كثرة ما تعرض له الناس من التعذيب والضـــرب الذي يفضي أحيانا إلـــى المـــوت؛ أدرك الأهالي خـــلال حملة حســـين بك وآبوش أغا أنهـــم أمام عملية تطهير عرقي وتشفي لن يسلموا منه، لذا كانوا يبحثون عن مخـــرج للنجاة مما كان يُقترف ضدهـــم؛ فلجأوا إلـــى بناء ملاجئ حجرية تحـــت الأرض سُـــميت "الحجائر"، الهدف منها تخبئة الأطفال والنساء خوفًا من أن تُنتهـــك أعراضهم، ومـــن البلدات النجديـــة التي لجأت إلى ذلك حريملاء. غير أن العســـاكر العثمانيين اغتنموا الفرصة أمـــام خلـــو البيوت مـــن أهلهـــا، فقاموا بالســـطو عليهـــا ونهبوا ما فيهـــا، وكانوا يغادرون البلدات التي يستبيحونها بقطع أشجارها وبساتينها.

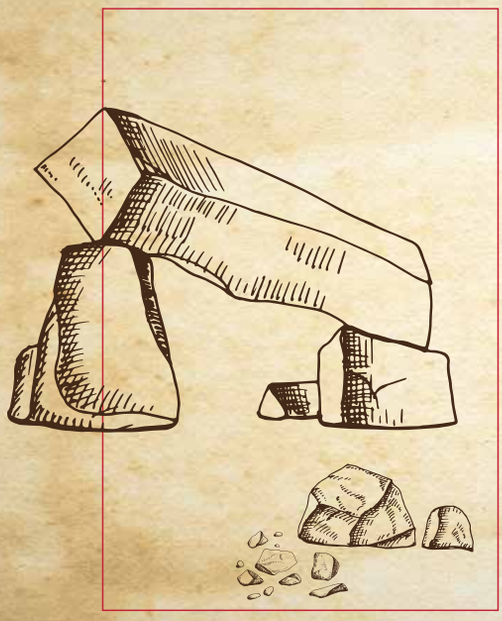

"المسطول"...
أثبت في الدرعية أن "الأفيون" قاتل

لـــم يفصل بين حرب تدميـــر الدرعية وحرب الأفيون الأولـــى بين بريطانيا والصين ســـوى (20) عامًا فقـــط، فالأولى عـــام (1818) والثانية عـــام (1838)، إلا أن المشـــترك بينهما هو (الأفيون)، المادة المخدرة التـــي تؤخذ لإلغاء الاتصال بالواقع والهـــروب منه، وأحد أخطر المخدرات على حياة الإنســـان وقبلها آدميته، إلا أنه في الحرب الثانية كان "الأفيون" سببًا اقتصاديًّا حيث خسرت بريطانيا ملايين الجنيهات بســـبب حرق القوات الصينية كميات تجارية هائلة كانت على ســـفينة متجهة إلى مناطق بريطانية، أما الحرب الأولى التي تم فيها تدمير العاصمة الســـعودية الأولى (الدرعية) فكان الأفيون فيها ســـبباً "مزاجياً"، وإن كانت هذه المادة أبدعت في إنتاج أفكار شيطانية في القتل من أجل التشفي وتنويع أساليب الخداع والغدر في القتل الفردي والجماعي، كأن يطلب من صاحب البيت أن يهدمه بنفسه ثم يقتله بسلاحه، أو أن يجمع أكثر من (200) إنســـان بريء ليقتلهم دفعة واحدة مســـتغلا حســـن نواياهم ومحقراً لها في الآن نفســـه، وغيرها من الفنون المختلفة في إراقة الكرامة البشرية ممزوجة بالدم القاني، وليس بخلاً بالتأكيد.

إبراهيم باشـــا (توفي: 1848) كان مدمناً على مادة الأفيون المخدرة التي كان يأخذ منها كميات في تنقلاته الطويلة في حروبـــه، وابتكر لهـــا طريقة فـــي منتهى الرفاهية لتعاطيـــه، بتخصيص مرافق له عبر الدروب الممتدة مهمته مضغ الأفيون لتجهيزه وتليينه لإبراهيم "الأفيوني" باشا، ابتدع إبراهيم باشـــا لذلك المضَّاغ لقبًا من عنده لقَّبه به، من بِـــدَع المادة المخدِّرة أو من ابتداع عقل إبراهيم باشا المخدَر، فقد كان يلقبه بـ "المعجون آغا".

وتذكر الأبحاث الطبية أن الأفيون كان يستخدم أول ما ظهر لتسكين الآلام المختلفة، وهذا ما أثبته إبراهيم باشـــا ربيب الدولة الطورانية، فالألم الذي أحسّـــه العثمانيـــون من قيام وحدة عربية في الجزيرة العربية على أســـاس ديني ســـليم وصحيح لم يجد إبراهيم باشـــا أمام نتائجه الموجعة إلا استخدام "الأفيون"، أما ما ذكرتـــه البحوث العلمية من أنـــه يؤدي على المدى الطويل إلى انخفاض مســـتوى الوعي والإدراك فقد تكفل القائد العســـكري المعتوه بإثباته وإن كان بأثر رجعي، فقد نفّـــذ أول حادثـــة تدمير لمدينة في الجزيـــرة العربية تعيش حالـــة انتعاش وتقدم متصاعد نحو ظهور بؤرة إنسانية متقدمة لخدمة الحياة البشرية، ولم يدرك أن تلك البشاعة في الخصومة ســـتُوَلِّد نقمةً عربيةً وإســـلاميةً فقد حدثت بالفعل وتحت ســـؤال كبير: هل الدولة العثمانية إسلامية؟ فالإدمان أوحى له بنقل نسخة "بغداد" التي خطها "هولاكو" بالسيف والدم إلى الدرعية، ومن وفاء إبراهيم باشا للأفيون أنه لم يمت إلا بعد حرب الأفيون بين القوتين البريطانية والصينية بعشر سنوات فقط، لكنه مع الأسف لم يكن مشاركًا فيها.

المراجع:

1) عثمان بن بشـــر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق وتعليق: عبدالرحمن آل الشيخ، ط4 (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 1983).

2) إبراهيـــم بن عيســـى، تاريخ بعض الحـــوادث الواقعة في نجـــد (الرياض: دار اليمامة، 1966).

3) أمين الريحاني، تاريخ نجد وملحقاته، ط2 (بيروت: د.ن، 1954).

4) بيير كربيتس، إبراهيم باشا، ترجمة: محمد بدران (القاهرة: د.ن، 1937).

5) سعود بن هذلول، تاريخ ملوك آل سعود (الرياض: مطابع الرياض، 1961).